القصص الديني

الحلقة الثالثة
قصص الخلفاء الراشدين

وفاة أبي بكر الصديق

٤

عبد الحميد جودة السحار

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ، ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيد » .

(قرآن كريم)

١

كـان المسـلمون يقـاتلونَ المُرتدِّيـن عـن الإسـلام ، فلما انتصروا عليهم راحوا يُقاتلونَ الفُرْسَ والـرُّوم ، وقد قُتِل كثيرٌ مـن الّذيـن يحفَظـونَ القُـرآنَ فى هـذه الحروب ، وخاف عُمَرُ بنُ الخطّاب أن يضيعَ القرآنُ بعد مـوتِ الّذيـن يحفَظونَـه ، فدخَـلَ علـى أبى بكـرٍ وقالَ له :

ـ إنَّ القتلَ قد استَحرَّ (اشتدَّ وكثُر) يومَ اليمامـةِ بالنّاس ، وإنى لأخشَى أن يسـتمِرَّ القتـلُ القُـرَّاءِ فى المَواطِنِ ، فيذهبَ كثيرٌ مـن القـرآنِ إلاّ أنْ يجمَعـوه ، وإنى لأرَى أن يُجْمَعَ القرآن .

قال أبو بكرٍ لعُمَر :

ـ كيفَ أَفعلُ شيئًا لم يفعلْهُ رسولُ اللّهِ ﷺ ؟!

فقال عُمَر : هو واللّه خَيْر .

فلم يزَلْ عُمَرُ يُراجعُ أبـا بكـر ، حتّى شـرَح اللّهُ لذلك صدْرَه ، وأرسل أبو بكرٍ إلى زيـدِ بـنِ ثـابت ، وكان يكتُبُ الوَحْـيَ لرسولِ اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فلما جاء زيدٌ قال له أبو بكر :

ـ إنَّـك شابٌّ عاقِل ، ولا نَتّهمُك ، وقد كنتَ تكتُبُ الوَحْيَ لرسولِ اللّه ، فتتبَّع القُرآنَ واجمَعْه .

وأحسَّ زيدُ بنُ ثابتٍ أنّ أبا بكـرٍ يطلبُ منـه أمـرًا خطيرا ، وشعر بأنَّه لو كان قد كلَّفـه نقلَ جبلٍ مـن الجبالِ لكـانَ أيسرَ مِمّا أمره بـه ، فـراح زيدٌ يجمعُ القـرآنَ مـن الرِّقـاع والأكتـاف (ألـواح مـن عظـم الكَتِـف ، كـان العـربُ يُنظِّفونَهـا ويكتُبــون عليهـا كتاباتِهم) وصدورِ الرِّجال .

استمرَّ زيدُ بنُ ثابتٍ يعمَلُ اللَّيلَ والنَّهار ، حتَّى تمكَّن من جمعِ القرآن فى صُحُف ، ودفع بالصُّحُفِ إلى أبى بكر ، فبَقِيَتْ عندَه .

٢

كان الجوُّ باردا ، فدخل الناسُ دورَهم يَحتمونَ فيها من البرْد ، ودخل أبو بكرٍ دارَه يغتسِـل ، فخرج بعد أن اغتسَل ينتفِـض ، فدخـل فِراشَـه ، فأحسَّ حرارتَـه ترتفـع ، وأنَّ رأسَـه يكـادُ ينفجر ، ومرِضَ أبـو بكـرٍ بالحُمَّى ، فلمْ يُعدْ بقادرٍ على أنْ يخْرُج ليُصلِّيَ بالنّاس .

ودعا أبو بكرٍ عبدَ الرَّحمٰنِ بنَ عـوْف ، وكـان من خيْرَةِ صحابةِ الرَّسول ، وقال لَه :

ـ أخبرْني عن عُمَر ؟

فقال عبدُ الرَّحمٰن :

ـ يا خليفةَ رسولِ اللّه ، هو واللّهِ أفضلُ من رأيكَ فيه من رجُل ، ولكنْ فيه غِلْظة .

فقال أبو بكر :

ـ ذلكم لأنه يرانى رقيقا ، ولو أنَّه أَفْضَى الأمرُ إليه ، لترَكَ كثيرا مِمَّا هو عليه . وقد رمقتُه فرأيتُنى إذا غضِبتُ على الرجلِ فى الشَّىءِ ، أرانى الرِّضا عنه ، وإذا لِنتُ له ، أرانى الشِّدَّة عليه . لا تذكرْ يا أبا محمَّد مِمَّا قلتُ لك شيئا .

قال عَبْدُ الرَّحمَن بنُ عوْف : نعم .

وفهِم عبدُ الرَّحمن أَنَّ أَبا بكرٍ يُريدُ أن يستخْلِف عُمَر على المسلمينَ بعدَه .

ودعا أبو بكرٍ عثمانَ بنَ عَفّانَ وقال له :

ـ يا أبا عبدِ اللّه ، أخبرْنى عن عمر .

قال عثمان : أنتَ أخبَرُ به (أى أعلَمُ به) .

ـ عَلَى ذاك .

قال عثمان :

ـ اللّهم عِلْمى به أنَّ سريرتَه خيرٌ من علانيَتِه ، وأنْ ليسَ فينا مثلُه .

قال أبو بكر :

ـ رحِمَك اللّه يا أبا عبدِ اللّه . اكتُبْ : بسم اللّـه الرحمن الرَّحيم . هذا مـا عهَـد بـه أبـو بكـرِ بنُ أبى قُحافةَ إلى المسلمين ، أما بعد ..

ثم أُغمِـيَ على أبى بكـر ، فكتـبَ عثمـان « ... فإنّي قد استخْلفتُ عليكم عُمرَ بنَ الخطّاب ، ولم آلُكُمْ خيرًا منه ...

وأفاق أبو بكر ، فقال لعثمان : اقرأْ عليَّ .

فقرأ عثمانُ ما كتب ، فقال أبو بكر :

ـ اللّـه أكبر ! أراكَ خِفْتَ أن يختلِفَ النّـاس إن افْتُلِتَتْ نفسى فى غَشيَتِى .

ـ نعم .

ـ جزاكَ اللّهُ خيرًا عن الإسلام وأهلِه .

واستخْلفَ أبو بكرٍ على النّاسِ عمرَ بنَ الخطّاب ، فسمِع النَّاسُ له وأطاعوا . ودخـل طلحةُ بنُ عُبَيْدِ اللّه عليه ، وكان من كبارِ الصَّحابة .

وقال له :

ـ استخلفت علـى النّـاس عمـرَ ، وقـد رأيـتَ مـا يَلقى النّاس منه وأنت معه ، فكيف به إذا خلا بهم ، وأنتَ لاقٍ ربَّك ، فسائلُك عن رعيَّتِك ؟

فقال أبو بكرٍ ، وكان مضطجعا : أجلسونى .

فأجلسوه ، فالْتفت إلى طلحةَ وقال :

ـ أباللّه تُخوِّفُنِـى ؟ إذا لقيتُ اللّـهَ ربّى فسـاءَلَنى قلت : استخْلفتُ على أهلِك خيرَ أهلِك .

ودَخل عبـدُ الرَّحمـنِ بنُ عـوْفٍ على الصِّدِّيق ، وَفطِن الصِّدِّيـقُ إلى تغيُّرِ وجـهِ عبـدِ الرَّحمـنِ بعـد أنِ اسْتخْلفَ أبو بكرٍ علـى النّـاس عمر بـنَ الخطّـاب ، فقال له أبو بكر :

ـ إنّي وَلّيْتُ أمرَكم خيرَكم فـى نفسى ، فكلُّكُمْ وَرِمَ أنفُه من ذلك ، يُريدُ أن يكونَ له الأمـرُ دونَـه ، ورأيتُمُ الدُّنيا قد أقبَلـتْ ، ولَمّـا تُقبِـلْ : وهـى مقبلةٌ حتى تتّخـذوا سُتورَ الحريـر ، ونَضـائدَ الدّيبـاج ،

وتَألَموا الاضطِجاعَ على الصُّوف ، كما يألَمُ أحدُكم أن ينامَ على حَسَكِ السَّعْدَان (السعدان : نبت ذو شوك حاد) .

٣

جلستْ عائشةُ ابنةُ أبى بكر ، وزوجةُ النبىِّ ، تُمرِّضُ أباها ، فنظر أبو بكرٍ إليها طويلاً وقال :

ـ يابُنَيَّة ، إنَّ أحبَّ النَّاسِ غِنًى إلىَّ بَعدى أنتِ ، وإنَّ أعزَّ الناس فقرًا علىَّ بَعدى أنتِ ، وإنّى كنتُ نَحَلتك (أعطيتك) أرضى التى تعلَمين ، وأنا أحبُّ أنْ تَرُدِّيها علىَّ ، فيكونَ ذلك قسمةً بين وَلَدى على كتاب اللّه ، فإنما هو مالُ الوارث ، وهما أخَواك وأُختاك .

فظهَر الدَّهشُ فى وجهِ عائشة ، فما لها إلا أختٌ واحدَة ، هى أسماء ، وقد ذهبتْ مع زوجها إلى اليَرْموك لِقتالِ الرّوم ، فما بالُ أبيها يقولُ : أختاك ؟! فقالتْ فى عجب : أُختاى ؟

فقال أبو بكر فى هدوء :

ـ ذو بطن ابنةِ خارجَة ، فإنى أظنُّها جارية .

كانت حبيبةُ بنتُ خارجَةَ زوجتُه حاملا ، فلم يشأْ أن يُهمِل ولَده الّذى لايزالُ فى عَالَمِ الغَيْب ، بلْ راح يُفكِّر فيه ، ويعمَلُ على إحقاقِ حقِّه قبلَ أن يراه .

واشتدَّ المرضُ عليه ، فنظر إلى زوجتِه أسماءَ بنتِ عميْس وقال : غَسِّلينى .

فقالتْ أسماءُ فى ضيق فما كانتْ تُحِبُّ أن تُغسِّل زوجَها بعد موتِه :

ـ لا أُطيقُ ذلك .

فقال لها أبو بكر :

ـ يُعينُك عبدُ الرَّحمن بنُ أبى بكر ، يصبُّ الماء .

والتفتَ إلى عائشة وقال :

ـ فى كمْ كُفِّنَ رسولُ اللّه صلّى اللّهُ عليه وسلَّم؟

فقالت عائشة : فى ثلاثةِ أثواب .

فقال أبو بكر :

ـ اغسِلوا ثوبَيَّ هَذَيْن ـ وكانا ممزَّقين ـ وابتاعوا لى ثوبًا آخر .

فقالت له عائشة :

ـ يا أبت إنّا موسرون .

فقال أبو بكر فى هدوء :

ـ أىْ بنيَّة ، الحىُّ أحقُّ بالجديدِ من الميِّت ، إنما هما للمُهْلَةِ (للقيح) والصَّديد .

وبدأتِ الشّمسُ تغرُب ، واشتدَّ المرضُ بأبى بكر ، وراحَ يُعالِج سَكَراتِ الموْت ، وفتح عينيْه ، وقال بصوتٍ خافت :

ـ يا عائشة ، ادفِنونى بجوارِ رسولِ اللّه .

ثم أسبل جفنيه ، وأخذت روحُه تُحشْرِجُ فى صدرِه ، فقالت عائشة :

لعمرُك ما يُغنى الثَّراءُ عن الفتَى
إذا حشرجتْ يومًا وضاقَ بها الصَّدرُ

فبان الغضب فى وجهِ أبى بكر ، ساءَه أن تتمثَّل أمُّ المؤمنينَ بذلك الشِّعر ، ولا تتمثَّل بالقرآن ، فقال :

– ليسَ كذلك يا أُمَّ المؤمنين ، ولكن : « وجاءتْ سكرةُ الموتِ بالحقِّ ، ذلك ما كنتَ منه تَحيد » .

واشتدَّ عليه الموتُ فقال هامسا :

وكلُّ ذى إبل موروثٌ   وكلُّ ذى سلب مسلوبُ
وكلُّ ذى غَيْبةٍ يئوبُ   وغائبُ الموتِ لا يئوبُ

وراح يجودُ بأنفاسِهِ الأخيرة ، وكان آخرُ ما نطقَ به :

– « ربِّ توفَّنى مُسلمًا ، وألحقنى بالصَّالحين » .

وفاضت روحُ أبى بكر ، خليفةِ الرَّسول ، فحزنَ النّاسُ لوفاتِه حُزنًا شديدا ، وراحوا يُجهِّزونَه لَيْلا ، ثُمَّ حُفِر له لحْدٌ بجوارِ لحدِ النَّبىِّ فى بيتِ عائشة ، وحملوه ، ودخل قبرَه عُمَرُ وعثمانُ وطلحةُ وعبدُ الرَّحمن ابنُ أبى بكر .

دُفِن أَبو بكـر ، وسمع عُمَرُ نُواحا ، فقـد أَقامتْ عليه عائشةُ النّوحْ ، فانقبضَ عمـر ، وسـار إلى بـابِ عائشة ، ونهَى النّساءَ النائحاتِ عـن البكـاء ، فـأبينَ أن ينتهين ، فتحرَّك غضبُ عمرَ ، فـالتفتَ إلى رجـل معه ، وقال له :

ـ ادخل فأخرجْ إليّ ابنةَ أبـى قُحافة ، أُختَ أَبى بكر .

وبلغ ذلك سمعَ عائشة ، فقـالتْ لـلرَّجلِ من وراءِ الباب :

ـ إنى أُحرِّجُ عليك بيتى .

فأحجمَ الرجل ، فقال له عمر :

ـ ادخل ، فقد أَذِنْتُ لك .

فدخل هشام ، فأخرجَ أُمَّ فروةَ أُختَ أبى بكـرِ إلى عمر ، فعلاهـا بـالدِّرَّة ، فضربهـا ضَرَبـات ، فتفـرَّق النائحات حينَ سَمِعْن ذلك .

وخرجت عائشةُ ووقفتْ على قبرِ أبيها فبكت ، ثم قالَت :

ـ نضر اللّه يا أبتِ وجهَك ، وشكر لك صالحَ سعيك ، فقد كنتَ للدُّنيا مُذِلاًّ بإدبارِك عنها ، وللآخرةِ مُعزًّا بإقبالِك عليها ، ولئن كان أعظمَ المصائبِ بعد رسولِ اللّه صلّى اللّهُ عليه وسلّم رُزْؤُك « مصيبتك » ، وأكبر الأحداثِ بعده فقدُك ، إن كتابَ اللّه عزَّ وجلَّ ليَعِدُنا بالصَّبْر عنكَ ، حسْنَ العَوَض مِنك . وأنا مُتنجِّزَةٌ من اللّهِ موعدَه فيك ، بالصَّبْر عنك ، ومُستعينَةٌ كثرةَ الاستغفار لك ، فسلّم اللّه عليك ، توديعَ غيرِ قاليةٍ لحياتك ، ولا زاريةٍ على القضاءِ فيك .